تجديد الخطاب الديني عند مالك بن نبي

أ.بلحنافي جوهر
جامعة معسكر

Resume
Every when we mentioned Malek Ben nabi unless according ,this recall with his preoccupation thinking of realty of the world Islamic , it was his being busy , how he flatten his investigate about critical development, and he detrminated the pretext of underdevelopment, and he try to give the way haw to cure civilization crises in odor to decreased, and to leave it we could realized evolution , the problem of civilization was the essence of his philosophy , where he belived that it must getting up thinks the humain being with other fondamental condition in odor to achieved or make progress.
Keywords
world Islamic, civilization, progress, underdevelopment,

يعتبر العلماء والمفكرين ودعاة الإصلاح من الروافد التي تنهل منها الإنسانية لتستمد أسس ارتقائها، وتحفيزها فهؤلاء النخبة هم بمثابة النور الذي يضيء درب المظلم بما أنهم يكرسون حياتهم من أجل القيام بدور اجتماعي فعال وهذا للارتقاء بالتراث الثقافي، فهم يحاولون أن يخلقوا مقاومة ثقافية تتحدى الصعاب الموجودة في المجتمع ومن هؤلاء النخبة مالك بن بني الذي يفتخر بانجازاته الفكرية كل جزائري ،وعربي مسلم ؟ وماذا قدم للفكر العربي الإسلامي؟

مالك بن نبي مهندس وفيلسوف جزائري ولد بقسنطينة 1905، وتوفي بالجزائر سنة 1973. عرف باهتمامه الشديد بمشاكل العالم الإسلامي والبحث عن سبل تقدمه، وأسباب تخلفه لذلك أثار الإشكالية التالية. كيف يمكن لمجتمع خرج من الحضارة أن يعود إلى الحضارة، ولماذا أخرجت الأمة الإسلامية من طور الحضارة أو كيف يمكنها العودة إلى الحضارة؟

فقد اتجه مالك بن نبي نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به وقد تمكن من أن إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة قبل كل شيء. لذا اخص كتبه جميعها بعنوان مشكلات الحضارة"

حيث اصدر منها مجموعة من مؤلفات مشكلة الثقافة – العالم الإسلامي – مشكلة النهضة – الظاهرة القرآنية – الصراع الفكري في البلاد المستعمرة – تأملات في المجتمع – ميلاد مجتمع – السلم في عالم الاقتصاد.

المستشرقون في الفكر الإسلامي – الأفرقسوية فمن التأمل لعناوين كتبه نلاحظ أن صلب اهتمامه كان منصبا حول واقع العالم الإسلامي ومحاولة فهمه وبالبحث عن سبل لعلاج أزماته – حيث أشار أبي ذلك قائلا في إحدى مؤتمرات حول الفكر الإسلامي "أنها تناول دائما القضية أو القضايا معايشة في الفكر الإسلامي، القضايا بجوانبها النفسية والاجتماعية التي يمكن جمعها في كلمة موحدة أو عنوان واحد "أزمة الحضارة الإسلامية وطبعا وراء كل محاولة تعالج أزمة حضارية محاولة للخروج بحل إذا أمكن الأمر لهذه الأزمة[1]"

فالبحث عن حل للأزمة الحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي شكل هاجسا فكريا عند مالك بن نبي، لذا فقد ركز اهتمامه على تحليل ودراسة شروط النهضة ودواعي التحضر.

لقد كان مالك ابن نبي متميزا باستخدامه للمنهج التحليلي، بحيث كان يحلل تحليل علميا للمفاهيم الاجتماعية إذ يعرضها تصوراته في معادلات رياضية (فتحليلية كان رياضيا) حيث يظهر ذلك في نظريته حول الحضارة وكذا تعريف لمصطلح مجتمع في كتابه "ميلاد مجتمع" فنية يعرض تعريف وتعتبر الأدبي فكلمة مجتمع في القاموس تعني "تجمع الأفراد ذوي عادات متحدة يعيشون في ظل قوانين واحدة ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة"[2]

فهو يعتبر أن تعريف بسيط ولا يعطي أدنى تفسير للوظيفة التاريخية ،ولا يفسر تنظيمه الداخلي إذ يرى أنه يجب أن نحدد المجتمع في نطاق الزمن"[3] فالمجتمع في نظره "هو جماعة الإنسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن أن نطلق عليها مصطلح ميلاد"[4] ،فتناول لميلاد مجتمع وربط المجتمع بالزمن، أن ذلك التغيير الناتج عن حركة التي تنبع من السيرورة الزمنية، حيث تنبثق عن هذه الحركية التاريخية، حضارة معينة فالحضارة عنده "لأن الحضارة وظيفة أساسية لأن مجتمع متحرك في التاريخ".[5]

وقد عرف الحضارة من حيث العناصر الأساسية التي تصنعها فالحضارة: الإنسان + تراب + الوقت بما أنها كل منتج اجتماعي والإنسان هو الذي يقوم بالإنتاج، فقد حلل هذه عناصر الأساسية ،وكذا تعريف الحضارة من حيث مشكلاتها الوظيفية بحيث اعتبر أن "الحضارة هي توفير المجتمع لشروط مادية ومعنوية، التي تكفل لكل فرد من أفراد المجتمع الضروري من حياته في جميع أطوراها".[6]

وفي مشكلة الحضارة نجد مالك بن نبي قد حلل مختلف مواقف الفلاسفة والمفكرين حيث تناول فكر توبني ونظرية التحدي والاستجابة، ... كما وقف أراء المصلحين من العرب والمسلمين من ذلك موقف جمال الدين أفغاني، فالطهطاوي وشكيب أرسلان ... وقد نوه بفضل ابن خلدون.

و اعتبره من الأوائل الذين أدركوا خطورة الأزمة الحضارية حيث قال مالك بن نبي "منذ قرون أراد عمالقة الفكر الإسلامي أن يطلق في الضمير الإسلامي والوعي الإسلامي صرخة خطر، أن يطلق أبواق النذير والتغير وهو ابن خلدون"[7]فإن مشكلة الحضارة عند مالك تنحل إلى ثلاث مشاكل أولية وهي مشكلة الإنسان، ومشكلة الوقت ،ومشكلة التراب.

و إلى مشكلة الإنسان وتحديد شروط الانسجام مع التاريخ ومشكلة التراب وشروط الاستغلال في العملية الاجتماعية ومشكلة الوقت، وبث معناه في روح المجتمع في نفس الفرد حيث يرى أنه يجب أن نضع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في أهدافهم.

لقد اعتبر مالك بن نبي أن لكل حضارة عمر ميلاد ونهضة وأوج أفوول وكل طور من هذه الأطوار يقوم بفعل ظاهرة التجديد الحضاري فالحضارة الإسلامية قامت بعد تغير المسلم نفسه وعقليته ومحيط المجتمع الجاهلي زوده بطاقة روحية والرغبة في سمو والنقاء بحيث اندفع إلى الأعمار والحصاد والعلم والبحث، فكون علوم وفنون وصنائع وتطورات الحضارة الإسلامية على أساس التغيرات والتجديدات التي أحدثها المسلمون على حياتهم، وبيئتهم في جميع مجالاتها الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إضافة إلى تفاعلهم مع الثقافات الأخرى.

وعليه فالتجديد الحضاري هو شرط لتطور آلية حضارة لما تعانيه الأمة الإسلامية من ضعف، وتخلف راجع إلى أمراض حضارية وغياب المبادرات، وحاول أن يجد العلاج الملائم لها من خلال ما قدمه في مؤلفات الحاملة لعنوان مشكلات الحضارة.

ويعتبر أن العلاج لا يكون إلا في التجديد الحضاري فكل نهضة وكل حضارة إلا وتشترط تجديد حضاري فماذا يقصد بالتجديد الحضاري، وكيف يمكن تحقيق هذا التجديد الحضاري، وكيف يمكن تحقيق هذا التجديد في أرض الواقع والخروج من الأزمة والعودة إلى الحضارة؟

فالتجديد الحضاري هو فعل إنساني مرتبط بقدرة الإنسان على الإبداع وإرادته في بناء حضاري لذا فالتجديد الحضاري يأخذ عدة مدلولات ومعاني فهم البناء الحضاري الذي يقوم عليه أن ميلاد الحضارة، كما يعني تطور واستمرارية الحضارة،

كما يأتي بمعنى الإصلاح وإزالة المفاسد والعودة إلى حفل الحضارة ويعني أيضا البعض الإحياء، وهو في جميع الحالات شرط لقيام الحضارة وبناء المجتمع وتطويرها والمحافظة على بقائها."[8]

تحتاج أية نهضة حضارية إلى شروط تاريخية ونفسية اجتماعية، فالحضارة يعلب الفرد دور بالغ الأهمية في بناءها من خلال صلته بمجتمعه وعلاقته بالتاريخ.

"فالشروط النفسية تكون في البداية ذات طابع ذاتي خاص ثم تتبلور وتشق طريقها داخل المجتمع، فتصبح ذات طابع اجتماعي وبعض الشروط التاريخية يفرضها الاجتماع البشري وشبكة العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع"[9]

وقد جعل مالك بن نبي التجديد الحضاري مشروط يقيم أخلاقيته وجمالية فهي التي تشكل عوامل تحرك التاريخ وتبني الحضارة حيث يقول "إن مجتمعنا معينا لا يمكن أن يؤدي نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التي تؤلف عناصره المختلفة، النفسية والزمنية" وإن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية.يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع."[10]

بقد اعتبر أن وراء هذين البعدين. أبعاد أخرى تمثل المرجعية وأرضية التي تنبثق عنها كل هذه الأبعاد وهنا يؤكد مالك بن نبي على البعد الروحي الدين، ذلك أن العلاقات الاجتماعية هي قائمة في حقيقتها على قيم وقوانين أخلاقية وجمالية يكون الدين أو البعد الروحي هو أساسها حيث يقول "الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وهي يهبط من السماء يكون للناس شريعة ومنهما"[11]

فالبعد الدين هو مفهوم وموجه للسلوك الفردي حتى يؤدي الفرد رسالته ومساهم في بناء حضارته، فهذا البعد الروحي هو الذي يضع الإنسان في التاريخ ويمكنه من بناء الحضارة ومحافظة على استمراريتها، حيث يحقق وجوده الإنساني التي تمثل بمبتغى الإسلام وبمثابته.

شروط التجديد الحضاري، كيف نحقق تجديدا حضاريا وتعود إلى الحضارة؟

لإصلاح مجتمع من فساد السلوك وإحياء نهضة حضارية يضع مالك بن نبي خمسة عناصر أولية وهي بمثابة الشروط الأساسية لتحقيق نهضة حضارية وبالتالي تعمل على إصلاح، وإحياء البحث ارتقاء حضاري أو بناء حضاري.

– لقد جعل مالك بن نبي عناصر أساسية وأولية لتحقيق ارتقاء حضاري ولبنائه، وتتمثل هذه العناصر كما سبق الذكر في الإنسان – والتراب والوقت "لا يتاح لحضارة في بدئها رأسمال، إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك والتراب الذي يمده بقوته الزهيد، حتى يصل إلى هدفه والوقت اللازم لوصوله"[12]

فالحضارة بمختلف إنجازاتها وصورها منبعا هذه العناصر الأولية الثلاث وكل عنصر من هذه العناصر يتحدد ماهيته لذا فهو يدعو لحل هذه المشكلات الثلاث من تقييم حضارة.

وهذه مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ – ومشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية ومشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد.

– ولقد جعل الفكرة الدينية هي أساس كل حضارة بما أن الحضارة هي إنتاج إنساني في التاريخ، والتاريخ من صنع إنسان تابع من الفكرة الدينية لأن العقيدة هي منطلق الروح وهي التي تعمل علة تغذيتها وتوجيهها حسب الغايات التي رحلت من أجلها حيث تدفع إلى خلق الرغبة في التجديد والحركة وهذا بأحداث التغيير.

على التغير – فهو لب عملية التجديد الحضاري، فهو شروط الإصلاح والبناء وبعض، وإحياء، وقد استند في ذلك على قوله عز وجل" إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[13]

إن عملية إنتاج الأفكار والقيم، وحتى الأشياء التي تتم بفعل التجديد الحضاري حيث تنبثق من الفكرة الدينية التي تدعو إلى تغيير يقتضي التغيير الانطلاق من الفرد بحيث يحدث الفرد تغييرا في نفسه وهي مجتمعه وهذا نلمسه من الآية الكريمة، فالإنسان لا يمكن أن يحقق هدفه إلا إذا أسما بقيمه وهذا لا يمكن إلا إذا تحرر من كل القيود التي تقف حاجزا أمام تحضره. "فالتغير يبدأ من داخل نفس الفرد ثم شق طريقة خارج الفرد في المجتمع والأمة والإنسانية جمعاء"[14]

البناء لا التكديس.

فمن خلال استقرائية للواقع يقدم مالك بن نبي شرط آخر، له أهميته في بناء الحضاري، والذي يتمثل في رفض الاستيراد والتدنيس ويدعو إلى التمييز بين الإنتاج والاستيراد وبين البناء والتدنيس، حيث يرى أن العالم الإسلامي في هذا الطريق يكدس الأشياء، ويكدس الأفكار، فحتى الأفكار نهضتها إلى عالم الاشياء لأنها كانت من هذا القبيل إذا كانت مستوردة كالبضاعة، ولا يعرف قيمتها إلا من كونها وصاغها ولا يمكن أن يعرف قيمتها من استوردها، ولا يمكن أن نجد فيها جدوى لأنه ترك جذورها وأصولها في أوكارها، وأتى بها إلى أرض لا يمكن أن تنبث فيها وتؤدي مفعولها"[15]

فالأمة الإسلامية تدفع ضريبة ضعفها ناتج عن التكديس والإعجاب والانبهار بالآخر مثل استيراد فكر لنبين والإعجاب بفكر ماركس ويعرض في ذلك قول ابن خلدون "أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء أي يقلد الغالب"[16] كما يعرض رأي جمال الدين الأفغاني وتأكيد هو كذلك على التغيير، والمثال المستهجن كما سماه مالك بن نبي يستغرب كيف نطلب من الأعداء أعطاء وسيلة لتحريرنا كأن نستورد السلاح من مصانع الأعداء والخصوم فلا يمكن لشعب أن يتعفى إلا إذ امتلك وعيا حضريا مكنه من إدراك الفرق بين البناء والتكديس" "فالحضارة هي التي تلد منتجاتها"[17] فالحضارة هي عملية بناء ناتج عن حركة أفراد المجتمع قائمة أسس فكرية ومادية في عالم الأشخاص والأشياء في إطار منهج يحدد مبادئها وغاياتها مشغلا في ذلك كل الوسائل فاستغلال هذه الوسائل يتطلب توجيها، فماذا يقصد بالتوجيه؟

التوجيه:

لقد اعتبر أن التوجيه هو شرط ضروري ولازم لتجديد الحضاري، ولتحقيق النهضة بما أنها مشروطة بالتغيير بحيث لا يمكن لمجتمع أن يؤدي رسالته وينهض بواجباته إلا إذ حدث تفاعل بين المكونات شبكة العلاقات الاجتماعية.

بما أن صاغه التاريخ عنده تقوم تبعا لتأثير المتبادل الذي يحدث بين هذه العناصر الثلاث، تأثير عالم الأشخاص تأثير عالم الأفكار – تأثير عالم الأشياء.

فهذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتى صورته طبقا لنماذج ايدلولوجية من "عالم الأفكار" يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها "عالم الأشخاص"[18]

لذا فهو يؤكد على التوجيه حتى لا يترك الفرد عرضة للارتجال الفوضى، فالتوجيه حسب مالك بن نبي هو "قوة في الأساس وفي توافق في السير ووحدة في الهدف[19] ومنه فهو يمنع من تصنيع الوقت، لهذا فهو يؤكد كذلك على عامل الزمن ويعتبره أحد مشاكل الحضارة الذي يتطلب إيجاد الحل له. فالزمن هو جوهرا لحياة وثروة لا تقدر بثمن لذا فهو يدعو إلى ضرورة الوعي بقيمته ويعتبر أن التربية هي الوسيلة الوحيدة التي تغرس في نفوس الأفراد الشعور بقيمة الوقت لهذا يقول" فإذا استغل الوقت هكذا فلم يضع سدى و لم يمر كسولا في حلقنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة"[20] فالتوجيه يعتبر عاملا أساسيا للبناء الاجتماعي وفي صنع الحضارة حيث يقول حيث "يتحدد توجيه النقابة وتوجيه رأس المال، يفتح مجالات جديدة للعمل"[21]

لنقل الإنسان من عالم الركود إلى عالم الحضارة يتطلب تحديد إستراتيجية تأخذ بعين الاعتبار الاهتمام بالجانب الاجتماعي والفردي وخصوصيات كل مجتمع التاريخية والفكرية والطبيعة والاقتصادية لتحديد شروط الإصلاح وأساليب إعادة بناء وهوا ما يسمح للمجتمع بالنهضة لكنه يؤكد في ذات الوقت على ضرورة علاج الامراض الحضارية وفي هذا الإطار "يرى مالك بن نبي أننا إذا أردنا معرفة أمراض المجتمعات ودراسة أسباب سقوط الحضارات، فإنه يجدر بنا دراسة الأنا النفسي للأفراد، الذي تتجلى فيه الأمراض الحضارية ومفاسد الأمة وإن لم تأخذ بهذه الطريقة أو المجتمع فإن نظرتنا تتناول واقع الأمة الحضاري تظل نظرة سطحية ووصفية تهدف على الظواهر والأشياء ولا تنفذ إلى جواهر القضايا وتنهها الداخلي لتجسد الأمراض وترصد العطل والأسباب"[22]

فقد اعتبر أن التخلف الحضاري هو بمثابة مرض يتطلب دراسة عميقة لا تثق على الجانب الوصفي وإنما لتشخيص أسباب المرض لابد من النفاذ إلى عمق هذا المرض باستخدام التحليل النفسي كذلك وقد اعتبر أن هذا المرض هو ناتج عن العلاقات الفاسدة في عالم الأشخاص التي تعطي نتائج سيئة على عالم الأفكار وعالم الأشياء والأمة في نظره ليست أكثر من هذه العوالم الثلاثة "كذلك أن سيادة المفاسد في عالم الأشخاص وتفشي أمرضه في المجتمع هو بداية منحنى السقوط الحضاري الذي خلقته واستحدثته عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل، والتي تستطيع أن تختزن بطريقة قد تكون لا شعورية من الإنسان وفي غفلة من العقل لتمتد داخل الأمة، وتهيمن على حياتها الاجتماعية والاقتصادية"[23]

إن العودة إلى الحضارة لا تكون إلا بالتجديد الحضاري وهذا بفهم المعادلة التي تحكم الحضارة ذاتها ومحاولة علاج أمراض الحضارة انطلاقا من الدعوة إلى التجديد وقف شروط دقيقتين حتى تتمكن من رد المجتمع المسلم إلى طريقة نحو الحضارة من جديد وهذا هو الهم الذي كرس له مالك بن نبي فكره وحياته لذلك اعتبر رائد مدرسة الفكر الإسلامي الحديث، فقد حاول الكشف عن قواعد البناء الحضاري من خلال دراسة أسباب قوته وضعفه لذلك يعتبر من رواد الفلسفة والنهضة في عصرنا الحاضر بما أن مالك تفلسف حول الحضارة وحول شروطها وعناصرها وموانعها وعوامل انهيارها، وحول التخلق وأسبابه وموانعه.

ويعتبر منهلا معرفيا يتغذى منه كل فكر متعطش للأخذ بأسباب المساهمة في البناء الحضاري لما قدمه من رسم خطة لإصلاح وتجديد الحضاري، لذا فإن نظرية الحضارة لمالك بن نبي تبرز روح المسؤولية وايمان برسالته وواجبه نحو أمته التي أوهب حياته واستنفذ منها كل طاقاته في سبل إنقاذ الأمة من الفساد وإخراجها من عالم التخلف والانحطاط والقابلية للاستعمار.

قائمة المصادر والمراجع

1- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة – محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامي، قسنطينة، 1970، ص133.

2- مالك بن نبي – ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986، ص15.

3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص15.

4- المصدر نفسه، ص16.

5- عبد المجيد عمراني، محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي، منشورات الحبر، الجزائر، ط1، 208، ص130.

6- المرجع نفسه، ص131.

7- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، ص134.

8- جيلالي بوبكر، الإصلاح والتجديد الحضاري لدى محمد إقبال ومالك بن نبي بين النظرة الصوفية والتفسير العلمي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2010، ص61.

9- المرجع نفسه، ص63.

10- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص48.

11- مالك بن نبي – شروط النهضة ت ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، دون طبعة، دون سنة، ص75.

12- مالك بن نبي، نفس المصدر، ص89.

13- قران كريم، سورة الرعد، الآية 11.

14- الجيلالي بو بكر، المرجع السابق، ص81.

15- مالك بن نبي – مشكلة الحضارة، ص140.

16- المرجع نفسه، ص138.

17- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص61.

18- جيلالي بو بكر – المرجع السابق، ص85.

19- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص117.

20- مصدر نفسه، ص214.

21- مصدر نفسه، ص164.

22- حسن سعيد، حضارة الأزمة ماذا قبل الانهيار – دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003، ص93.

23- المرجع نفسه، ص93.